الشعر لغة البشرية

بقلم: هان زو رونج (*)

ترجمها عن اللغة الصينية: سيد جودة - مصر

في عالمنا الحاضر، ومع انتشار وسائل الاتصال الإلكترونية، فإن الإنترنت هو أبرز الظواهر الصناعية في التاريخ. تبادل المعلومات والاتصال الإلكتروني الحر جعل الكرة الأرضية تنكمش لحجم شاشة الكمبيوتر. إن سرعة وتركيز توحيد الاقتصاد الاجتماعي والعولمة والاتصال الذهني والمادي وتبادل المعلومات، جعل متناقضات الأمة تصغر شيئًا فشيئًا على المستوى المادي، كما أن التداخل الثقافي والاقتصادي والسياسي أدى إلى احتدام ومنافسة بين ثقافة الأمة وثقافات مغايرة أخرى. في نفس الوقت، فإن نظرنا إلى المشهد الاجتماعي الداخلي للمجتمع والعوامل الروحانية للأمم المختلفة فإن اختلاف التكوين الديني والعقائدي والنظام الاجتماعي والعادات والتوجه الفكري والفني واختلاف الوعي، واختلاف الناحية النفسية لكل ثقافة والتفرقة العنصرية داخل الأمة الواحدة ـ أدى كل هذا إلى ازدياد التناقضات قوة وتعقيداً و حدّة؛ حتى إن الأمة تدفع الثمن في عدد لا حصر له من الأرواح. ولكن يبقى دائمًا من الهام أن نعترف بمشاعر جماهير الأمة، وتظل النظرة الخارجية للعالم وتظل القيم كما هي دون تبديل.

في ظل هذه الظروف، في ظل المناخ الذي يسود العالم كله ألا يوجد قوة ذات سلطة تستطيع أن تجعل هذه الأمم تعترف ببعضها البعض لحماية البشرية وتطورها؟ ربما أن هذه القوة وهذه السلطة غير موجودتين. ولكن إرغام أمم مختلفة على قبول طريقة حياة وقيم ونظام اجتماعي وثقافة مختلفة ما هو إلا أحلام يقظة وأمنيات خادعة. لا يمكن للعالم أن يتطور إلا بالاحترام المتبادل بين الثقافات المختلفة والتطور الاجتماعي والاستفادة الكلية، هذا فقط الذي يحقق الانسجام بين الحضارات المختلفة. في ظل الحفاظ على الثقافة القومية وتطويرها، فإن التأكيد على اللغة القومية والتأكيد على استخدامها له دور حيوي وهام. هذا يذكّرني بمقولة شاعرين. الأولى لـ" ت . س . إليوت " حيث تحدث عن الشعر و اللغة وأنهما أهم شيء يميز الأمة فقال: " يمكن حذف لغة أمة ما والتحكم فيها بل يمكن تعليم لغة أخرى قهراً، ولكن إن لم تستطع تعليم الشعور والإحساس بهذه اللغة الجديدة فإنك لم تقتلع جذور اللغة القديمة " .

(*) رئيس تحرير مجلة أدب الشعب بالصين.

في الواقع، إنه لا حيلة لاقتلاع اللغة الضاربة بجذورها بقوة في الأمة اقتلاعًا كليًّا، فإن للغة الأم مقاومة عنيدة. إن من يتحدث لغة أخرى غير لغته الأم دائمًا يعدّ النظام اللغوي للغته الأم هو الوحيد الأصح في نظرته للأشياء. إن كل لغة لها مفهوم ونظام خاص بها وطريقة تفكير وإطار سلوكي وثقافي، واختلاف اللغة يتبعه اختلاف في نظرة الإنسان للأشياء ومعرفته بها.

وإن حاولنا النظر للغة بشكل أكثر بعدًا وعمقًا، تمامًا كما قال الشاعر بولوسنكي: "لو أخذنا شكل أية منظمة اجتماعية كمثال، فإن اللغة، وكذلك الأدب الذي كلما ازداد عراقةً ازداد أهميةً وكلما ازدادت الحياة صلابةً، وإن كل المشاعر المعادية والسخرية واللامبالاة التي يعبر عنها الأدب هي في الأصل أبدية ومن الأصح القول بأنها تعبر عن المطلق ضد المؤقت، ضد رد الفعل المحدود". وهو حتى يعتقد بأن: "الإمبريالية لا يمكنها أن تستمر عن طريق القوة السياسية أو العسكرية، ولكنها تعتمد على اللغة في الوحدة. . . . . إن الإمبريالية هي قبل كل شيء كيان ثقافي، وإن الدور الذي تقوم به ليس عسكريًّا بل لغويًّا". هذا يذكرني بأنه في ظل السياسة الاستعمارية يتعدد استقلال الأمم وتزداد اللغات والمجموعات العرقية. في عالمنا الحاضر نجد أن الحروب بين البلدان كثرت وأصبحت أكثر وحشية وانقسام بعض الدول أدى لانقسام في الأصول العرقية وفي اللغة.

لو قلنا إن الثقافة هي أساس وجود الأمة، فإن اللغة تضمن أساس كل نشاط عقلي للإبداع الثقافي. في الواقع، ليس هناك فروق بين لغات العالم المختلفة. إن اللغة تقوم بدور أداة فكرية، ويمكن لأية لغة أن تقوم بهذا الدور كليةً، وتعبر بشفافية بشكل تام حتى عن النظريات العلمية والاستنباطات المنطقية والفكر الفلسفي. إن اتخاذ العالم "دنج زاو زونج" للغة الصينية، لغته الأم، في كلمته التي ألقاها موجهًا إياها إلى لجنة المحكّمين بعد فوزه بجائزة "نوبل" لدليل على هذا. غير أن اللغة الأدبية تقدم مستوًى آخر من اللغة غير اللغة العلمية، فبها أنتجت كل أمة أعمالاً أدبية عظيمة وخالدة.

إن الفكر الإنساني تأثر بما لا يمكن أن يدركه وعي الإنسان أو يرفضه من توزيع قانون الشكل، غير أن قانون الشكل هذا هو خاصية مستقلة للثقافة القومية. في "اللغة والأسطورة" يذهب إرنست كاسيرير إلى أن علم اللغات الحية حين يحاول تفسير أصول اللغات يعود دائمًا إلى مقولة هامان: "الشعر هو لغة البشرية" مؤكدًا على أن اللغة الأم لا تنبثق من اللغة النثرية للحياة اليومية بل من اللغة الشعرية، ولذلك لا بد من أن نبحث عن الأساس الأول للغة بجهود موضوعية.

إن أصل اللغة ينبعث من عملية خروج الصوتيات في استعراض طويل لتاريخ العقل البشري. لا بد للغة أولاً من أن تتحول من الشكل الأسطوري إلى قوة ووجود واضح عن طريق التخيل، بعدها يمكن أن تتحول عن طريق المعرفة إلى أداة مثالية ومبدأ للمعرفة والحكمة، إلى كيان واقعي

روحاني وقدرة أساسية على التطور. إن شاعرية اللغة والعلاقة المسماة بـ "علاقة الروابط" يجب أن تكون بينها صلات وثيقة تنبثق من علاقات لغوية أكثر عمقًا في الثقافة القومية، أي النظام الداخلي للغة.

عند دراسة الطفل للغة، فإنه يتقن اللغة الأم تلقائيًا بسرعة مدهشة. كما أشار باحث إلى أن الخلفية الثقافية للغة الأم التي تحتوي على علامات ورموز منطوقة تمر للأطفال عن طريق الحواس. إن تكرار النتيجة المثيرة يصل كل مضامين الثقافة القومية بعضها ببعض، ويخلق شبكة علاقات ثابتة بين وحدات الفكر في عقل الإنسان الذي كان خاليًا فتشكل نظامًا لغويًا واضحًا.

إن الأمة الصينية أمة تهتم بشكل بالغ بتعليم الشعر، فمنذ القدَم والشعر في الصين كان يعبر عن عزيمة الشعب. جاء في كتاب "منتخبات أدبية" لكونفوشيوس: "عدم دراسة الشعر يؤدي إلى ضياع الحوار" مؤكدًا على ضرورة دراسة الشعر، وجاء في الكتاب كذلك: "دراسة الشعر وإتقان الرسم يكمله دراسة الموسيقى". إن دارس الشعر والمراسم الحكومية والموسيقى يبدأ بالشعر الملهم لإرادة المتعلم. إن الشعر القديم يشكل جزءًا أساسيًا وهامًا في الثقافة التقليدية الصينية، بل إنه في أسرة تانج كان الشعر هو أساس اختيار الموظفين الحكوميين، فمن كان يكتب الشعر كان يتم اختياره موظفًا حكوميًا. ومنذ قديم الزمن وحتى الآن كان إلهام الأطفال الصينيين يبدأ من الشعر، حتى أوقات الفوضى في تاريخ الصين لم تكن مستثناة. حين يبدأ الطفل في تعلم الكلام، يبدأ في تعلم شعر أسرة تانج وهو على صدر أمه أو على ظهر أبيه، حتى إنه بإمكان الطفل الذي بدأ في تعلم الحديث حفظ ما يزيد على مائة قصيدة، وهذا ليس أمرًا نادرًا. إن ذاكرة الطفل دون الثالثة عشرة تكون الأقوى في مراحل حياة الإنسان، فكلما صغر العمر قويت الذاكرة التي تبدأ في الضعف بعد سن الثالثة عشرة لتزداد القدرة على الفهم قوة.

قامت أسرة من مدينة "تجن جوو" في مقاطعة "لياو ننج" بإجراء تجربة في هذا الأمر. قامت هذه الأسرة بتعيين معلمين للغة الصينية واللغة الإنجليزية لتعليم طفلين في الأسرة. كانت الطريقة المستخدمة هي تحفيظهما العملين الصينيين "منتخبات أدبية" و"منتخبات تاريخية" وكذلك أعمال شكسبير في لغتها الأصلية. حين واجهَنا الطفلان للإلقاء اكتشفنا أنهما استطاعا الحفظ عن ظهر قلب واستمرا في الإلقاء لأكثر من ساعة دون نسيان شيء، وكانت الطفلة ذات السنين الخمس أكثر طلاقة في الحفظ وأذهلت الحاضرين، على الرغم من أنهما لم يفهما النصوص التي حفظاها. ألم تنجح هذه التجربة؟ ألم تعلن الموهبة عن نفسها؟ لن نناقش هذا الآن ولكن أهمية تعليم الأطفال في صغرهم وتفتح ذكائهم يعطي الأمل للإنسان. بالنسبة لمسألة التعليم باللغتين، فإن كل مدرسة في المدن المتوسطة والكبيرة تطبق تجربة التعليم باللغتين: الصينية والإنجليزية؛ لأن ارتفاع المستوى في اللغة الأجنبية مطلوب للباحثين والأساتذة الجامعيين. في الغالب يدرس الطلاب

الصينيون اللغة الإنجليزية ولكنهم يمرون بصعوبات في دراستهم للغة ثانية، حيث يبدو أن اللغة الأم تعارض استخدام اللغة الثانية التي لم يدرسها الطالب لسنوات كافية لتحدثها بسهولة. من يمتهن الكتابة الأدبية في الصين يفقد الوظيفة الرسمية التي أفقدهم التأهل لها عدم إتقانهم للغة أجنبية. إن هناك من أنفق جهدًا كبيرًا في تعلم أساسيات شيء لن يستخدمه بعد النجاح نظرًا لعدم وجود المناخ المناسب لتطبيق اللغة الأجنبية. هذا يشكل إهدارًا خطيرًا لطاقات الإنسان ويدفع لهذا ثمنًا باهظًا. أظهرت الجامعة أمرًا غريبًا، ألا وهو ارتفاع نتائج امتحانات اللغة الأجنبية وهبوط مستوى اللغة الصينية القديمة لدى الطلاب الصينيين المغتربين.

في الواقع، إن اللغة الأم لأمة ما هي الشكل الأمثل للتفكير الطبيعي لها. ليس هناك سوى احترام اللغة الأم ووضعها في مكانة رائدة يؤدي لتطوير الذات وهذه معرفة بدهية. في الوقت الذي بدأت فيه اليابان قبول التقدم التكنولوجي الغربي لم تعمل على رفع مستوى اللغة الأجنبية في بلدها، بل ركزت قوتها المالية والمادية لجعل قلة فيها تتقن اللغة الأجنبية لقبول التقدم التكنولوجي وسرعة نقله إلى اللغة اليابانية عبر قنوات المعلومات، وإكمال تحويل نظام هذه التكنولوجيا إلى اللغة الأم. كانت النتيجة هي حصيلة مضاعفة بنصف المجهود.

إن الذين يتقنون لغتين أو أكثر في الأمة الواحدة يعدّون قلة ولكن وجود هذه القلة يصبح كافيًا. في السنوات الأخيرة، حرصت الصين بوعي على رفع أهمية تعليم الثقافة القومية لدى الشباب. تحرص كل مدرسة على ممارسة اللغة الأم وتجعل من إتقان اللغة الأم للأمة بمثابة اعتراف بأساسيات الثقافة القومية. هناك بعض الجامعات التي أسست داخلها معاهد قومية لهذا الهدف. وقد بدأت المدارس في تايوان وهونج كونج في تنظيم أنشطة يلقون فيها الأدب الكلاسيكي الصيني وشعر أسرة تانج وأسرة تسونج. تبع هذا إنشاء مدينة "ووخان" و "نان تشنج" وغيرها من المدن محطات لإلقاء كلاسيكيات الأدب الصيني والغربي، ويشرف متخصصون على أنشطة إلقاء الأطفال للشعر.

قام بعض الموسيقيين في بكين بتلحين شعر أسرة تانج وعلموا أطفال الحضانة إنشاده، كما خصصت حكومة مدينة شنجهاي دعمًا ماليًّا من ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٧ لتنظيم ما أسمته "إعلاء روح الأمة والحفاظ على ثقافة الأمة" لإنشاء أكثر من مائة مركز تعليمي لأكثر من عشرة أنشطة فنية، مثل المسرح القومي والموسيقى القومية والفن القومي وما إلى ذلك. تقبل هذه المراكز التعليمية حوالي ستة آلاف مشارك سنويًّا. كما أنشأت مدينة شنجهاي أيضًا مسرحًا كبيرًا للفنون الاستعراضية والتمثيل في المدارس الابتدائية والإعدادية. إن أنشطة تعليم الشباب ثقافة الأمة منتشرة ومتنوعة في كل أرجاء الصين، حيث بدأت المحطة المركزية لتليفزيون الصين العديد من البرامج ذات المواضيع المختلفة والتي تشاهدها نسبة كبيرة من الجماهير وأحيت ثقافة الأمة بشكل

كبير. تبع هذا نشر عدة كتب عن هذه الموضوعات، وكانت الطبعة الأولى قد وزعت أربعة ملايين نسخة وأعيد طبع الكتب بسرعة كبيرة.

أثناء انتشار هذه الثقافة التقليدية القومية، فإن الشعر الحديث في المائة سنة الأخيرة من تاريخ الصين يعدّ ظاهرة بُعْثتْ للحياة من جديد. هناك حوالي عشرة ملايين مؤسسة للشعر الشعبي أسست مجلات لها، كما أقامت حوالي عشرة ملايين موقع إلكتروني للشعر الشعبي. وبسبب الاحتياج للحاجة الروحانية، فإن محبي الشعر كثيرون جداً في كلّ من المناطق الفقيرة والمناطق المتطورة اقتصادياً. إن شكل الشعر الصيني التقليدي القديم يلاقي اهتماماً كبيراً ويحبه كثيرٌ من الصينيين في منتصف العمر والمتقدمين في السن.

الشعر هو لغة البشرية. هناك من يقول إن اللغات الإيطالية والإنجليزية والألمانية تختلف في عصر "دانتي" و "شكسبير" و "جوته" عنها في وقتنا الحاضر. هذه اللغات مرت بتغييرات جوهرية بسبب أعمال هؤلاء الشعراء فأصبحت ثريةً بالكلمات الجديدة والشكل الجديد. ولكن من وجهة نظري فإن هؤلاء الشعراء كانت لديهم القدرة على تحويل الحجر إلى ذهب وتحويل الشيء الفاسد إلى شيء أسطوري، هذه الكلمات العادية تحولت من أقلامهم إلى معان جديدة تعدت تلك التي حوتها المعاجم. مما لا شك فيه أن اللغة بها خاصية تاريخية وخاصية عامة وأن اللغة تحتاج إلى التجديد والتطور. ربما تكون اللغات ذات الخاصية التاريخية قد ماتت، ولكن اللغة يجب أن يكون لها وجود حيّ ذو خاصية عامة عصرية. ولهذا، فإن في كتابات هؤلاء الشعراء العظماء وبسبب درجتها الفنية العالية وثرائها الروحاني ظلت اللغة حية ومليئة بالأحاسيس وذات سحر آسر للقلب. إنني أرى أن الشعر له دور في تنقية اللغة القومية. هذه اللغات الملوثة بالزيوت يمكن للشاعر تنقيتها مثل الفأس التي تكسر الرمز الصيني القاسي القشرة فيخرج منها الحياة الحقيقية لها. يا لهذه اللغة النظيفة الرائقة وهذا النداء المخلص من شيءٍ يهز القلوب!

إن المناخ الطبيعي يحتضن خلفية الوجود الثقافي والمادة المتطورة. إن الثراء المادي للوجود الإنساني هام للغاية. ولكن إن اختفت الحاجة الروحانية للإنسان أو تحولت لحاجة مادية فقط، فهو شيء يدعو للأسف. الشعر هو فن اللغة. لو قلنا إن العمل الفني هو نشاط يتجنب الزائف بحثًا عن الحقيقي فإن هذا "الزائف" يظهر بجلاء من خلال وجود الأضداد. كلما كان الشيء مألوفًا للناس في الحياة وكلما كانوا معتادين على رؤيته، سهل عليهم إغفال وجوده. إن الفن هو البحث عن هذا الشيء المفقود واستعادته فيظهر من بين ركام الحياة اليومية ويصبح شكلاً واضحًا تراه العين. لو كانت اللغة فحمًا، لكان الشاعر هو الشخص الذي يوقد هذا الفحم ولكان الضياء في ألسنة اللهب هو الشعر الذي يضيء القلوب!